عفلق و البعث

ثلاث دراسات في سيرة وفكر القائد المؤسس ميشيل عفلق



عفلق والبعث

ثلاث دراسات في سيرة وفكر القائد المؤسس



ميشيل عفلق

بين البعث وحزب البعث

بقلم: جلال الدين الشيخ زيادة

السودان 23 **حزيران** 1999

المقدمة

لم تقتصر البدايات الأولى للقائد المؤسس ميشيل عفلق واهتماماته على التركيز على الطابع السياسي الحزبي، وإنما كانت ذات طابع فكري وأدبي (1).. لذلك لم يبدأ نشاطه الاجتماعي بتأسيس حزب سياسي، وإنما بدأ

ببلورة مشروع فكري وحضاري أنتجته معاناته وحواره مع ا لافكار السائد ة في أوساط الجمعيات والمنتديات الفكرية والثقافية النخبوية في دمشق وباريس في عقد الثلاثينات. كان تطلعه إلى أن يكون أكثر من مجرد كاتب أو أديب لامع برغم أنه كانت لديه موهبة أدبية في كتابة القصة والشعر(2).

لذلك كانت معركته الأولى تتمثل في حسم العلاقة بين الثقافة والسياسة.. حيث كان الفهم السائد حينذاك.. ينظر الى المثقف كونه الشخص المترفع عن السياسة بكل ما كانت تحفل به من خبث ومؤامرات ودسائس. فشرع في طرح مفهوم جديد للثقافة والمثقف بحيث ترتبط الثقافة بالحياة وواقع المجتمع وتطلعاته، وأحدث ثورة اخرى في مفهوم السياسة بحيث ترتبط بالأخلاق والترفع وقيم الرسالة. فجاءت المرحلة التي دشنتها حركة نصرة العراق عام 1941، وبعد أن ترك مهنة التدريس في عام 1942 ونذر نفسه لمشروع حضاري كبير تبلور في ذهنه ووجد انه بعد معاناة كبيرة، ثم أعقبتها تكوينه فرق الجهاد الوطني لمقاومة العدوان الفرنسي، بعد تأسيس حركة الإحياء العربي (3)، وصولا الى تأسيس الحزب وكان في كل ذلك القائد المبادر.

كان القائد المؤسس يميز بين المبدأ كروح والمبدأ كذهن.. لهذا لم يحفل في بادىء الامر بصياغة نظرية كاملة وتصور فلسفي لم تنجبه ارض الواقع والتجربة.. وانما كان شديد ا لايمان بان المعاناة وخوض التجارب النضالية هي التي تصقل الانسان وتولد الابداع وتبلور النظرية الحية وأن تحقيق عمل يسير افضل من أعظم نظرية في بطوق الكتب والاذهان.

تحدث في بادىء الامر عن الحركة التاريخية وشروطها وعن الجيل الجديد وشروط تكوينه.. وانتقل لذلك من الثقافة النظرية الى العمل الثقافي والسياسي في شكل مشروع حضاري انساني شرطه الأخلاق.. وميز بوضوح منذ البدء بين (البعث) كغاية والحزب كوسيلة.. ووضع الشروط الصارمة لهذا الحزب لكي يكون حزب بعث.

لكل ذلك وضع البعث فوق الحزب، والحزب فوق الثورة، والثورة فوق السلطة والدولة (4).. والجماهير هي الأصل والمرجع.. وهي البعث ذاته في حالة نهوضها وانبعاثها..

وحدد الغايات البعيدة للعمل الحزبي والنضال السياسي كونه أداة تربوية.. بحيث يجب أن لا يتحول الحزب إلى غاية في ذاته وينسى اصل مشروعه النهضوي.. مهما تعقدت الظروف السياسية وكبرت المعوقات وادلهمت الخطوب..

تتضمن هذه الدراسة خمسة عناصر متكاملة تعالج نظرة القائد المؤسس ومفهومه لهذه العلاقة بين البعث وحزب البعث على النحو التالي:

1 - **القائد المؤسس بين الثقافة والسياسة.**

2 - **المرحلة الحركية وشروط الحركة التاريخية.**

3 - **المرحلة الحزبية وشروط (حزب البعث).**

4 - **دافع التحقيق وتجاوز الوسيلة الى الغاية (من الحزب الى البعث).**

5 - **التجربة الثورية النموذج والعودة الى مشروع البعث في العراق.**

أولا: القائد المؤسس بين الثقافة والسياسة

لقد كان الدافع الأول لنشطة البعث هو الدافع الحضاري، لذلك يرى القائد المؤسس أن الأمة هي الأصل، والحزب وليد آلامها ومعاناتها وتشوقها الى النهوض والانبعاث..

لهذا لم يبدأ القائد المؤسس مشروعه النهضوي الحضاري الانبعاثي بتأسيس (الحزب) وإنما اتخذت المسيرة التي بدأها صفة (الحركة)، وكان يصر على وصفها بأنها (رسالة لا سياسة) لذلك أخذت الكتابات الأولى التي سبقت تأسيس الحزب طابع المشروع الثقافي وليس البرنامج السياسي الحزبي..

إن تلمس البدايات الأولى للبعث كمشروع ثقافي (والحزب) الذي تأسس لاحقا كأداة لتنفيذ هذا المشروع.. تكشف موقف القائد المؤسس من مسألة العلاقة بين الثقافة والسياسة تلك القضية التي لا يزال يدور حولها الجدل وسط المثقفين العرب.. خاصة أولئك الذين يحاولون الهرب من الالتزام بمبدأ ثابت أو عقيدة محددة بحجة الحفاظ على حرية المثقف واستقلاليته، وكان المفهوم السائد للثقافة يقترن بالأدب والفكر المجرد والطابع النخبوي المثالي في النظرة الى الحياة.. كما أن الممارسة السياسية العربية وأحزابها التقليدية وما يكتنفها من مصالح وأنانيات وممارسات لا أخلاقية كانت تعزز هذا الميل للفصل بين الثقافة والسياسة. ويأتي القائد المؤسس ليقلب هذا المفهوم رأسا على عقب ويطرح معنى جديدا للعلاقة بين السياسة والثقافة، فاضحا الطابع الهروبي والتبريري المجرد للمفهوم السائد للثقافة العربية آنذاك.. ويبدأ المؤسس معركته في عام 1943 بطرح السؤال: كيف يجب أن نفهم الثقافة؟ ويجيب: "هي أولا مشاركة في الجهد. وليست انفعالا وتكيفا.. (وأن) على الشعب العربي أن يفهم الثقافة بأنها نوع من أنواع النضال، النضال مع النفس، النضال مع الفكر لكي يتعب في تحصيل المعرفة ولكي يجرؤ على تبديل الأسس السطحية في التفكير الشائع التي هي في داخله، لكونه ابن وسطه، لكي يعيد النظر في كل الأمور الأساسية حتى يصل الى النظرة الجديدة" (5) "فالثقافة ليست شيئاً جامدا يدخل على الرأس ويستقر وإنما هي حركة وحياة تتفاعل مع الشخص، تؤثر فيه، لها حاجات ومطالب ومستلزمات، ولها وسط تنبت فيه وتتخذ معناها.. (فهي) تعبير عن حياة حقيقية" (6).

لهذا فأن الجيل الجديد - كما يرى المؤسس - يشترط وجود فهم معين للثقافة ونوع معين من المثقفين متحررين من وهم الثقافة الاصطلاحية (7) ذلك لأننا لا نريد أن تبقى الثقافة غاية في نفسها، بل وسيلة لتقويم الأخلاق وتنشئة مناضلين في سبيل البعث العربي (8).

كما أن العقيدة لا تكتسب مبررها الوحيد - وهي الحرية - إلا إذا استطاعت أن توازن وتعادل القوى الواقعية الفاسدة الراهنة - واكثر من ذلك أن تتفوق عليها وتنتصر.. ولا يمكن أن تنتصر على القوى الفاسدة بالكلام (...) وانما بالعمل الايجابي.. ولولا ذلك - كما يقول المؤسس:

"لما جعلنا حزبنا منذ اليوم الأول لتأسيسه حزباً سياسيا"، ويضيف قائلا: "مازلت أذكر أن الكثيرين ممن كانوا يغارون على البعث أو يظهرون الغيرة عليه أخذوا يتساءلون عندما ظهر الحزب بالقول: لماذا اخترتم هذا الطريق وأنتم جماعة مثقفة خيرة؟ لماذا لا تكونون حركة لنشر الفكر والتبشير؟ بل ربما كان بعض الأعضاء الذين دخلوا الحركة في أول عهدها قد أخذوا بهذا الوهم أو الخطأ.. وقد أجبنا المتسائلين بأن الصفة السياسية التي حرصنا على أن تكون أصيلة في الحزب منذ أول تأسيسه، ومنذ ولادته هي امتحان لجديته ولواقعيته، وهي درء لشتى الأخطار التي تتعرض إليها الفئة المثقفة كالخيالية والمثالية والجبن

الذي يتستر بالمبادىء وفقد ان الرجولة" (9). "ولكل ذلك جعلنا السياسة امتحاناً للإيمان والمثالية" - كما يقول المؤسس ولكن "لم تكن السياسة غاية في أي حال من الأحوال" (10) "لأن مصيرنا في هذا العصر يتعين ويتقرر بالفكر والنضال معاً.. إذ أن الميزة التي سمحت لهذا الحزب بأن يقوم بدور أساس في حياة شعبنا كان لأنه جمع الفكر الى النضال" (11). كما أن الثقافة يجب أن تكون سلاحا في يد الثورة.. "لأنها تنقل الثورة وتنقل الآمال والأهداف الثورية من حيز العواطف والتمنيات المبهمة الى درجة الوعي الواضح والمنظم والمخطط " (12)..

هذا الوعي هو الذي جعل القائد المؤسس يرفض أن يكون مجرد كاتب أو أديب أو فيلسوف ينتمي الى النخب الثقافية العربية التقليدية التي كانت منتشرة آنذاك.. لذلك يكتب في مجلة (الدهور) في عام 1936 قائلا: " إن أصدق مرآة للنفس الانسانية هي الاعمال ولا أكتمك أنني كلما فكرت أن أكرس نفسي للكتابة.. أخجل من نفسي" (*).

تلك كانت بداية ثورة في مفهوم الثقافة والمثقف.. نقلتها من الطابع النظري المثالي الى المعنى العملي الميداني الشامل.. وهي ثورة في مفهوم السياسة بنقلها من الطابع الانتهازي الاناني المصلحي المرتبط بالخداع والمناورات الى المعنى الرسالي الاخلاقي الثوري الخلاق.

ثانياً : مشروع البعث في طور الحركة

كان القائد المؤسس يدرك منذ البدء أن الحركات التي تنشأ في مجتمع ما ، إما أن تكون سطحية وقتية، وإما أن تكون جدية اصيلة.. وكلا النوعين لا بد أن يتأثر بظروف المكان والزمان المحيطة به. ولكن نوعية هذا التأثر بظروف الزمان والمكان هي التي تعين نوع الحركة فإذا كان تأثر الحركة منفعلا سلبيا ، استنفد كل إمكانياتها وقواها حتى تغرق في ظروفها.. عددناها من الحركات السطحية الآنية العابرة، وإذا استطاعت الحركة أن تتأثر بالظروف المحيطة بها دون أن تغرق فيها ، بل تحتفظ بالسيطرة عليها لتوجهها كانت من الحركات الجدية الاصيلة.

وفي عام 1950 كتب المزيد عن شروط هذه الحركة بالقول: "أنني أستطيع تعريفها بأنها الحركة التي تستطيع أن تسيطر على الظروف، وهذا يعني أن كل ما يجري في بلاد العرب، وكل ما ينشأ فيها ويظهر ويعمل من أحزاب وتكتلات وقوى سياسية تتصف بالصفة المعاكسة تماما ، وهي أنها كلها خاضعة للظروف والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والنفسية. فالمشكلة بالنسبة للعرب هي أن يتمثل نزوعهم الى الحياة والتخلص من هذه الاوضاع في حركة تستطيع أن تسيطر على الظروف التي فشلت كل الحركات والجهود الأخرى في السيطرة عليها ، فأصبحت مقوية للفساد ، ومدعمة له. لا لأنها في الأصل فاسدة أو ترغب في الفساد ، بل لأن بعضها لم يعد العدة الكافية لكي يسيطر على الظروف.. وأن تكون من الناحية الفكرية في مستوى القضية التي تحاول حملها.. وهذا يعني أن التفكير الذي تبنى عليه هذه الحركة، يجب أن يكون تفكيرا عربيا (...) وأن يعالج جميع المشاكل الأساسية التي تتعلق بحياة العرب والشعب العربي" (13). كما اشترط صفة الأخلاقية في هذه الحركة.. لذلك عبر عن هذه الفكرة بصفة (الانقلابية) "فالانقلاب قبل أن يكون برنامجا سياسيا واجتماعيا ، هو هذه الحركة الدافعة الأولى، وهذا التيار النفسي القوي، هذه المغالبة التي لابد منها ، والتي لا يفهم أي بعث للأمة بدونها) (14).

والانقلاب العربي كما يرى القائد المؤسس "لن يحققه أعضاء البعث وحدهم فهم ليسوا إلا الطليعة التي سترشد الأكثرية من الشعب نفسه، وهذه الطليعة التي يجب أن تعد عشرات الألوف هي الضامن لتحقيق الانقلاب.. وقانونها هو أن تنظر الى الحياة نظرة جديدة، مختصرة قوية، أي أن تتحرر من كثير من الأثقال التي يحملها أفراد مجتمعنا المريض، أثقال التعلق بالمادة والاعتبارات المعنوية الزائفة، والأنانية والمنفعة الخاصة، وأن تصبح هذه الطليعة خفيفة في نفسها، أي أن تكون متحررة من القيود غير عابئة بالمنافع وأسباب اللذة والراحة، خفيفة أيضا في أسلوب عملها، كي تستطيع تحقيق الانقلاب" (15).

هكذا يصمم القائد المؤسس حركته التاريخية ويضع شروطها.. منطلقا من "أن الشعب العربي تتقدمه الطليعة الواعية المؤمنة.. سيمضي في نضاله التحرري التاريخي، سالكا الطريق الذي اختطته الحياة لكل عمل صادق أصيل طريق الانبعاث من الداخل لتتكون النفوس قبل الوسائل.. والعزائم قبل الأسلحة والتيار الحي الذي يخترق روح الأمة، ويكشف عن كوامنها ويلامس حريتها في أعمق جذورها" (16).

وترجم المؤسس مفهومه لهذه الحركة التاريخية الطليعية حينما أسس في عام 1941 (حركة نصرة العراق) التي نظمت تظاهرة طلابية في اكبر ثانوية في دمشق (مدرسة التجهيز الأولى) وذلك لدعم وإسناد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام 1941.

ثم تتبلور لديه فكرة التنظيم القومي الأعم.. وكانت النواة الأولى في عام 1942 باسم (حركة الإحياء العربي) التي أصدرت عدة بيانات سياسية (*) تعبر عن مواقفها السياسية من قضايا الأمة.. ثم تحولت الى اسم (حركة البعث العربي) في عام 1943 وظهر شعارها (أمة عربية واحدة.. ذات رسالة خالدة).

وفي عام 1945 شكلت حركة البعث فرق الجهاد الوطني لمقاومة العدوان الفرنسي على دمشق.. وفي العام التالي 1946 أصدر المؤسس مع رفيقه صلاح الدين البيطار صحيفة (البعث).. وفي عام 1947 انعقد المؤتمر التأسيسي ليظهر الى الوجود (حزب البعث العربي) ويتم انتخاب القائد المؤسس عميداً له..

ثالثا : من الحركة إلى الحزب (مهمة العمل الحزبي وشروطه)

كان المؤسس يرى أن مهمة العمل الحزبي هي أن يهيء بصمت وصبر واستمرار لتلك الأيام النادرة التي تتاح للأمة لكي تؤدي فيها امتحاناً، ولكي تظهر فيها ما اختزنته في أيامها العادية، بفضل صبرها ونشاطها وتجردها (17).

ولهذا السبب عد القائد المؤسس أن الحزب "هو ملك للأمة العربية وللمستقبل العربي وليس ملكا لفرد أو أفراد ولا حتى ملكا لأعضائه المنتمين اليه" (18). "ذلك لأننا نعرف بأن الأمة هي الخالدة، وبأن جيلا يعمل ويمضي ويأتي بعده جيل، وأجيال، وأن علينا أن نوفي قسطا من هذا الطريق.. وأن الأجيال لعربية تحتاج الى عشرات السنين حتى تلحق بفكرتها.. ولأن هدف البعث هو توحيد الشخصية العربية قبل توحيد الأمة العربية".. لذلك يرى المؤسس أن العمل الحزبي المنظم هو المجال المناسب لخلق الانسان العربي الجديد.. لذلك يقول: "في حزبنا لا ترد المحاذير التي ترد في الأحزاب الشيوعية إذا نحن بقينا أمناء لمنطلقاتنا.. فالتربية لا يدخلها الاصطناع وقولبة الشخصية بحيث يفقدها الحرية والابداع، ولكنه ينقذها من التسيب والميوعة والضياع والفردية التي تشل الحرية الغربية" (19). "وأن أهم مقياس للنجاح في نظر حزبنا هو أن نرجع الى الجماهير، الى جماهير شعبنا بين الحين والآخر، ونحن نعيش مع هذه الجماهير، ضمنها ومن داخلها

ونتعاون معها ولكن بين الحين والآخر، علينا أن نوقظ حس النقد والمراقبة فيها، لنرى الى أي حد هي راضية؟ والى أي حد متفاعلة قلبا وقالبا مع مسيرة الحزب؟ والى أي حد تقدم وعيها؟ والى أي حد نمت كفاءتها نتيجة الممارسة والمشاركة؟ هل تتلقى الخدمات من الثورة وتشكر؟ أم أنها تشارك في صنع الخدمات.. وهذا الانتاج وهذا التقدم؟ هل تشعر بأن الحزب شيء أعلى منها يعطيها؟ أم تشعر بأنها هي الحزب؟ وبأنها لا تأخذ من أحد وإنما هي تنتج وهي تعطي للأمة. إن الجماهير هي الأساس.. هي الأصل هي القوة الحقيقية الثابتة والدائمة.. فعندما نطمئن الى أن الجماهير تشارك وتزداد مشاركتها يوما بعد يوم وسنة بعد سنة، وبالتالي أن الأمة ترتقي" (20).

وكان يرى أن الحزب مفجر الثورات "هو فوق الثورات.. وإذا أخطأت الثورات فالحزب موجود لكي يصحح" (21) ولكي يقوم الحزب بهذا الدور.. "لا بد أن يجدد الحزب ذاته.. وأن يعود الى أصل مشروعه ومبادئه، لأن الحزب الذي يضطلع بمهمة تاريخية في سبيل بعث أمة، لا يخاف من أن ينتقد ذاته وأن يرى أخطاءه لأنه يعرف أن هذا شرط أساس من اجل أن يصحح سيره وأن يسرع في تحقيق أهدافه" (22).

رابعاً : دافع التحقيق وتجاوز الوسيلة نحو الغاية (الإرادة وعبء النهضة)

كان من الواضح أن اتجاه المؤسس لخلق حركة أو حزب هو من اجل وضع مشروع البعث النهضوي موضع التطبيق والتحقيق، وتحويله من مجرد أفكار وشعارات عامة إلى واقع في حياة الشعب العربي. لذلك كتب يقول: "إن التحقيق هو أقوى شيء في حياة الإنسان، وأن تحقيق عمل بسيط هو أقوى من اكبر فكرة تبقى في مجال الذهن والوهم.. لذلك علينا أن ننطلق متحررين من عبودية الكلام واللفظ وكل ما هو خيالي، باهت، عقيم، وأن ننشد حياتنا في العمل الخلاق.. فالأفضل لنا أن نتنازل عن شيء من كمال الصورة الأولى لفكرتنا.. شريطة أن تدخل في العمل وتتجسد، وتتحقق من أن تكون لنا فكرة كاملة وأن تبقى على الورق" (23).

وذلك لأنه كان يدرك أن الحياة الجدية "ليست احتيالا.. وأنه لا يبقى من التاريخ إلا الصحيح.. وهو ما يستحق البقاء، وهذا لا يحتمل الاحتيال والخدعة.. ولأن الأمم لا تستقل ولا تتربى ولا يرهف حسها، ولا تعلو روحها وتتعمق ويتفجر فيها ينبوع العمل والبناء والخير والفداء.. إلا إذا عانت بنفسها وعلى حسابها ودفعت ثمنا مساويا لما تطلبه من الحياة" (24)، "كما أن الوحدة ليست عملا آلياً يتم من نفسها نتيجة الظروف والتطور.. فالظروف قد لا تخدمها.. والتطور قد يسير معاكسا لها نحو تبلور كاذب للتجزئة فهي بهذا المعنى فاعلية وخلق.. ومغالبة للتيار.. وسباق مع الزمن أي أنها تفكير انقلابي وعمل نضالي".. وبدافع التحقيق والتجسيد للفكرة دخل البعث في مشروع وحدة 1958 مع مصر كبعث ولم يتصرف كحزب لأن الشروط التي فرضت على الحزب من عبد الناصر كانت كفيلة بضياع فرصة الوحدة لو تمسك القائد المؤسس بحزبيته على حساب بعثيته.. لذلك يرد القائد المؤسس على الذين عدوا قبول الحزب بحل نفسه للدخول في الوحدة مع مصر كشرط من عبد الناصر بأنه كان خطأ بالقول: "إن مبرر الخطأ الذي وقع فيه الحزب عندما قبل بحل تنظيمه في سورية هو هذا الحرص على الوحدة العربية، وعلى أن تصبح في ذهن كل عربي وفي ضمير كل عربي وأن تصبح حقيقة واقعة وأن تصبح شيئا قابلا للتحقيق.. لذلك فإن كل الأخطاء والانحرافات والمآسي التي نتجت عن الوحدة لا تعادل جزءا صغيرا من الكسب الكبير الذي نتج عن تحقيق الوحدة" (25).

خامساً : من تجربة الحزب في العراق إلى المشروع النهضوي (البعث)

كان قيام ثورة 17 - 30 من تموز فرصة كبيرة للحزب لوضع مشروعه موضع التطبيق، وبناء نموذج مجسد لهذا المشروع يتجاوز الأخطاء، ويستفيد من الدروس السابقة التي مر بها الحزب والأمة العربية. ومما زاد من فرصة هذه التجربة على التحقيق والاقتراب من مشروع البعث، هو بروز القائد المجدد صدام حسين، وصياغته نظرية العمل البعثية.. وتكامله الفريد مع القائد المؤسس في هذا الاتجاه. لهذا عبر القائد المؤسس عن طموحه وثقته بهذه التجربة ودور الحزب فيها للاقتراب من البعث - المشروع- فكتب في عام 1974 "لم يعد الحزب بعيدا عن الجماهير.. بل أصبح قريبا جدا، ونرجو أن يأتي اليوم الذي يزول فيه الفرق بين الجماهير وبين الحزب.. فتشعر الجماهير أنها هي البعث العربي، هي الأمة العربية في حالة البعث والنهضة" (26).

وبعد أن تبلورت تجربة الحزب في العراق، وتحولت الى قاعدة محررة للثورة العربية ونموذج نهضوي يجسد مشروعها.. وبعد أن تكامل الوضوح الفكري والنظري للبعث ورؤيته للمستقبل.. وبشكل خاص.. بعد أن أوضح القائد المؤسس بجلاء خصوصية نظرة البعث للعروبة والإسلام.. والنظرة العلمية الحضارية للتراث العربي ومع نضج الطرف الذاتية والموضوعية في الواقع العربي شرع القائد المؤسس في طرح المشروع النهضوي العربي الحضاري على مستوى (البعث) وذلك من خلال حوار العمل المستقبلي مع قوى الأمة الحية.. بأحزابها وتياراتها وقواها المختلفة. لذلك كتب يقول: "وبعد أن ثبتنا حقنا في حرية اختيار الطريق الى الثورة، وفي حرية فهم ماضينا وتراثنا.. لم نعد نعتبر أن ثمة مشكلة تقوم بيننا وبين الذين يلتقون معنا في الأهداف كلها أو بعضها ويختلفون عنا في طريق الوصول الى تلك الأهداف.. إذا كانوا يحترمون حرية اختيارنا وخصوصية طريقنا " (27).

وبهذا افتتح القائد المؤسس مرحلة جديدة من النضال القومي يتجاوز فيه النظرة الحزبية الضيقة إلى مستوى البعث كمشروع لكل الأمة لأنه كان علي يقين بأن الوحدة الحقيقية "هي التي تولد من التنوع ومن التعدد ومن الرأي الحر ومن الجواب الجدي هذه الوحدة الراسخة، هي الوحدة الحية التي يكتب لها البقاء والثورة العربية ليس أمامها إلا هذا الطريق - كما يقول - بعد أن رسخت هويتها واستقلاليتها واكتشفت طريقها الخاص بين ثورات العصر. لذلك لم يعد من خوف عليها أن تنفتح وتتحاور وتغتني بالرأي المخالف وبالإرادات الحرة" ويضيف: "هذا هو مستقبلنا الآن، هذه هي المرحلة الجديدة" (28)، "فنحن نرى أن من الطبيعي في أوضاع التجزئة الراهنة أن تتعدد التجارب الثورية في المجتمع العربي وتتنوع، ننظر اليها كأنها تجربة واحدة متعددة الجوانب متكاملة الأجزاء، وأنها مكملة لتجربة الحزب، لا منافسة له، ومن واجبها أن تتكامل وتتفاعل في سبيل تعزيز وحدة النضال ونضال الوحدة" (29).

وكذلك لأن القائد المؤسس كان يدرك "أن القضية القومية أصعب وأكثر تعقيدا من أن يستطيع تيار واحد أو حزب واحد أن يفي بحاجاتها وأن يقوم بحلها أو يستوعبها.. إذاً هي بحاجة الى جهود الجميع، والى آراء ووجهات نظر مختلفة تتكامل ويصحح بعضها بعضا ".. كما أنه كان يدرك "أن كل خلاف بين الأحزاب يجب أن يقف أو ينتهي، إذا تعرضت سلامة الوطن للخطر، هذا إذا لم تكن سلامة الوطن نفسها هي سبب الخلاف " (30).

أم المعارك تكتب أفكار عفلق من جديد (العودة إلى خط البداية)

بهذا الأفق الرحب صاغ القائد المؤسس مشروع البعث الحضاري لكل الأمة العربية، وعمل على بناء الحزب كأداة لهذا المشروع. إلا أنه لم يجعل من هذا الحزب معادلا موضوعيا للواقع العربي، أو الأداة الوحيدة لتحقيق نهضة الأمة.. وإنما خص له مكان الطليعة.. ووضع له شروطاً قاسية حتى يكون (حزب البعث) مجسد ا لمشروع الأمة ومحركا لجماهيرها وقواها وميدانا لخلق وتربية الانسان العربي الجديد المتكامل الشخصية غير المستلب الواثق من نفسه وأمته وحضارتها.

يقول القائد صدام حسين: "صحيح أن دور المؤسسين هو بصورة عامة دور متميز في الحركات الوطنية والقومية والتقدمية، ولكن الذي ميز دور الاستاذ ميشيل عفلق كونه قد حافظ في جميع مراحل حياته النضالية على هذا المستوى التاريخي الذي صمم على أساسه مشروعه القومي الحضاري. فالحزب لم يكن بالنسبة إليه مجرد تنظيم مهما اتسع إطاره القومي وأحكم بناؤه ولا مدرسة فكرية تبشر بالثورة والنضال فحسب، وانما هو جسد وروح وكائن حي في المجتمع، والقومية في مفهومه هي عروبة وإسلام.. أي رسالة انسانية، والاشتراكية هي علم وروح، والحرية هي ثورة روحية قبل كل شيء.. لذلك تقدم الثقل الروحي في شخصية أستاذنا الراحل على ما عداه" (31).

إذاً لقد كان البعث أولا ثم جاء الحزب - كما يقول القائد صدام حسين في عام 1993، وبقيا حالتين تردف إحداهما الأخرى وقد يتراجع الحزب عن البعث مرة، ويلحق به مرات.. فإن لم يكن الحزب بمستوى البعث، فإن البعث يبقى حاله ويبقى الحزب شيئا آخر مختلفا.. ولكن لكي نحقق (حزب البعث) لا بد أن يكون الحزب في سلوكه، وفي نماذجه وفي استعداده وفي روح التضحية والايثار بين منتسبيه بمستوى البعث العظيم..

وعلى هذا الأساس دخل القائد صدام حسين المنازلة الكبرى- أم المعارك الخالدة- بمنطق البعث، أي المشروع النهضوي الحضاري لكل الأمة.. وليس بمنطق الحزب.. لذلك نجح في توحيد قوى الأمة الحية بمختلف أحزابها وتياراتها وجماهيرها حول شعارات ومشروع البعث في أم المعارك.. لهذا خاطب القائد صدام حسين أعضاء المؤتمر القطري العاشر (مؤتمر الجهاد والبناء) في عام 1991 قائلا: "لقد ثبتم على الموقف، وتحملتم ما تحملتم أنتم وشعبكم العظيم من اجل هذه الرسالة ومعانيها وأهدافها وشعاراتها، ولم تركعوا عند أول تهديد جدي، ثم تطووا رسالتكم وترحلوا عن ميدانها، كما يفعل المدعون، غير الصادقين، وغير الأمناء في دعواهم.. وهذا ما كان يريده أن يحصل، بل ويتمناه خصومكم وأعداؤكم لتنتهي دعوتكم ورسالتكم ويتحول البعث من بعث رسالة، أو رسالة للبعث الى مجرد حزب سياسي، حتى بعد السقوط الذي كانوا يمنون النفس به خاسئين، ويتصورونه ممكنا، خسئوا وخاب فألهم السيىء" (33).

هكذا تجسد المشروع الذي صممه وصاغه القائد المؤسس.. بعد رحيله مطمئنا.. فكانت أم المعارك الخالدة بمستوى البعث العظيم تعبيرا صادقا عن طموح القائد المؤسس ومنظوره الحضاري التاريخي.. لتفتح صفحة جديدة اكثر نضجا وتقدما.. وتضع الحزب أمام مسؤولية كبيرة للرقي الى هذا المستوى الجديد.. مستوى البعث والرسالة.. التي كرس القائد المؤسس حياته وفكره من اجلها وظلت باقية لتبقى ذكراه خالدة مع خلود الرسالة..

الخاتمة

نظرة القائد المؤسس للحزب والحزبية وإلى مشروعه الحضاري

كانت المرحلة التي سبقت تأسيس الحزب تتركز على خلق الجيل الجديد الذي سيتحمل لاحقا المسؤولية التاريخية في إطار الحزب.. وكان التركيز في بناء هذا الجيل يقوم على الجانب العقائدي والأخلاقي وليس السياسي، "فهو جيل لا يفهم ما كانوا يسمونه سياسة، لأن الحق لا يحتاج الى براقع، ولأن القضية العادلة لا تقبل التكتم". لذلك اتسم أسلوب عمل الجيل وحركته بالعمق والحوار والاقناع والتثقيف.. لذلك رفض

المؤسس الأسلوب السياسي التقليدي والعمل الدعائي العاطفي.. الذي يختار الخطابة والشعور السطحي الفاتر. فلجأ الى أسلوب الكتابة والحوار الموضوعي.

ومنذ بداية الأربعينات وتأسيس حركة نصرة العراق كان المؤسس ينفي عن حركته صفة الحزبية بالقول: "لسنا حزبيين ولا سياسيين محترفين".. ويؤكد أن مهمتنا هي التمهيد لنوع جديد من العمل السياسي "شق الطريق لا زرع الرياحين، غرس البذور الخالدة لا قطف الثمار اليانعة".. وتأتي فكرة الانقلابية بمعنى الثورة على الذات كشرط ضروري للانقلاب على الواقع وتغييره تغييرا ثوريا، والانقلاب في نظره "أوسع من البرنامج أو الخطة السياسية الاجتماعية، فهو النضال على طريق طويلة تخلق الشخصية العربية من جديد".

وبعد الاعلان عن تأسيس الحزب عام 1947 شرع يتحدث عن (النظرة الحية للحزب) عام 1955، ويحذر من أن يتحول الحزب الى (صنم) ويؤكد التجديد والنقد الذاتي والحرية المسؤولة "وهكذا بقيت النظرة الى الحزب حتى نهاية الخمسينات تركز على العلاقة العضوية بين التنظيم والفكرة، وبين الطليعة والشعب، وبين الوسيلة والغاية وبين الفكرة ومنابعها الروحية.. وفي ضوء هذه المقاييس كانت النظرة الى المشكلات التي بدأ يعانيها الحزب كلما ازداد عددا واتسع نشاطا وبرز سياسيا" وتصدى القائد المؤسس بجسارة يدافع عن هوية الحزب الاصيلة بعد الانحرافات، التي علقت به في عقد الستينات، والأزمة التي عاشها بعد الانفصال ووصول الحزب الى السلطة في سورية والعراق قبل نضج العوامل الذاتية في بنائه الداخلي..

وبعد قيام ثورة 17 - 30 من تموز 1968 في العراق.. وضع القائد المؤسس ثقله الفكري والسياسي معها بعد أن تأكد من سلامة خطها التاريخي وانسجامها مع مشروعه الحضاري الذي صاغه المؤتمر القومي التاسع (فبراير 1968)، هذا المؤتمر المهم الذي قام بتلخيص تجارب الحزب وتحليل الواقع العربي، وطرح فكرة التعددية والعمل الجبهوي الستراتيجي القومي، وتخلى عن صيغة الحزب الواحد والحزب القائد وبلور الصيغ المتوازنة للعلاقة بين النضال السياسي والنضال القومي (33).

هكذا وضع القائد المؤسس ثقته في تجربة الحزب في العراق وربط مصيره ومصير الأمة بها وأسهم عمليا مع القائد صدام حسين في رسم خطاها، فكانت خطبه وأحاديثه منذ النصف الثاني من السبعينات وحتى رحيله الى الدار الآخرة في العام 1989 تركز على الأبعاد التالية كما يلاحظ الدكتور الياس فرح (34).

1 - الأفق الروحي الذي انطلق منه الحزب (التجدد من خلال الاتصال بالماضي وإجلاء العلاقة بين العروبة والاسلام).

2 - التصور الجدلي لعلاقة الحزب بالأمة (الأمة هي الأصل والحزب وليد آلامها ومعاناتها وتشوقها الى النهوض والانبعاث).

3 - التصور الحضاري (مشروع العمل المستقبلي).

4 - التصور التاريخي للحزب ويؤكد القائد المؤسس هذه المعاني التي تجسدت في تجربة حزبنا في العراق بالقول:

"كان حزبنا في العراق دوما هو الحصن المنيع لفكرة البعث ونضاله، هذا الحزب نشأ ونما وكبر في قطر من أهم أقطار العروبة، هو القطر الذي تدافع فيه العروبة منذ مئات السنين دفاعا يوميا عن وجودها".

الهوامش

(1) انظر، ميشيل عفلق في سبيل البعث ج 5 ص.3 (مقابلة صحفية أجراها معه الشاعر العراقي بدر شاكر السياب بتاريخ 1958/8/9 يقول المؤسس: "لقد بدأت حياتي بالأدب، ومع ذلك فلا أريد القول بأنني أديب، وكنت أعطي القيمة الأولى للأدب والأدباء في الفترة بين سن 15 الى 20 سنة ولكن نوع الأدب الذي كنت أقرأه حتى في صغري، كان على الأكثر، أدباً فلسفياً، فقد قرأت اللزوميات للمعري، وسقط الزند، وأنا في السادسة عشرة من العمر، وانتقيت لنفسي مختارات من اللزوميات، كما قرأت المتنبي في تلك السن نفسها، ولما ذهبت الى باريس للدراسة، بعد حصولي على البكالوريا، كان الأدباء الذين أغرقتني كتبهم، أدباء مفكرين لذلك كان من الطبيعي الانزلاق من الأدب الى الفلسفة، وأول فيلسوف تعرفت عليه عن طريق الأدب هو (نيتشة)، وقد شغل مكانا خاصا في مطالعاتي، كما أعجبت غاية الاعجاب بالقصاص الروسي ديستوفسكي) ص 32.

(2) يلاحظ أن كتاباته الأدبية في القصة والشعر كانت تحمل في مضمونها ومواضيعها مشروعه النهضوي للأمة.. على سبيل المثال قصيدة "عاصفة" وقصة " السندباد ".. الخ.

(3) أسست حركة الإحياء العربي في أوائل 1940 وصدر بيانها الأول عام 1941.. أنظر سيرة القائد المؤسس في مقدمة كتاب في سبيل البعث، الكتابات السياسية الكاملة ج 1 الى ج 5.

(4) الأصل هو جدلية العلاقة بين الأمة والحزب والمناضل الفرد. ومما يميز نظرية البعث العربي أنها لم تفرق بين الفكرة والأسلوب - كما يقول المؤسس عام 1945 وبين الغاية والوسيلة، فالفكرة والغايات عامة مشاعة يستطيع أي فرد وأي حزب أن يدعيها، ولكن الضامن الوحيد لهذا الادعاء هو أن تكون الوسائل والأساليب مشتقة من صلب الفكرة مع الغاية، أنظر عفلق ج 4 ص 27.

ويقول المؤسس أن الحزب الذي تناديه الأمة العربية من أعماقها والذي تدعوه الأمجاد العربية من ماضي التاريخ العربي السحيق هو الحزب الذي يجعل الأمة غاية له لا الدولة، ج 1 ص 68. ويقول القائد صدام حسين: "تكون تقاليد الحزب أقوى قوانينه، وتكون قوانين الحزب أقوى من جميع قوانين الدولة، ويبقى الحزب قادرا على تغيير قوانين الدولة بما يحقق مبادئه، وتبقى الدولة وقوانينها عندما تتجرد من قوانين الحزب غير قادرة على أن تغير أي شيء من قوانين الحزب " مختارات ج 7 ص 123.

(5) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ص 123- 124.

(6) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ص 151.

(7) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ص 165.

(8) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 3 ص 45.

(9) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 ص 98.

(10) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ص 54.

(11) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 5 ص 175.

ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 5 ص 169.

(*) الدكتور الياس فرح، محاضرات غير منشورة، مكتب الثقافة والاعلام 1993.

(13) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ط 4 بيروت 75 ص 27.

(14) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ص 81.

(15) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 1 ص 102 ط بيروت.

(16) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 2 ص 239.

(*) صدر بيانها الأول عام 1941.

(17) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 ص 122.

(18) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 ص 369.

(19) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 5 ص 48.

(20) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 5 ص 154.

(21) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 2 ص 322.

(22) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 2 ص321.

(23) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 ص 17 عام 1943.

(24) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 ص 161.

(25) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 361.

(26) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 5 ص 203.

(27) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 3 ص 3 ص 125.

(28) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 5 ص 211.

(29) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 3 ص 124.

(30) ميشيل عفلق الكتابات السياسية الكاملة في سبيل البعث ج 4 ص 301.

(31) حزب البعث العربي الاشتراكي، في وداع فقيد البعث - دار الحرية- بغداد 1989 ج 1ص24.

(32) البيان السياسي الصادر عن المؤتمر القطري العاشر أيلول 1991 ص 35.

(33) د. الياس فرح، ندوة القاهرة حول فكر المؤسس 1990 ص 37.

(34) المصدر السابق، ص 237-238.



العفلقية وميشيل عفلق

الدكتورمحمد أحمد الزغبي

دمشق 2004

إن الوقوف مع فكر ميشيل عفلق، إنما هو عملياً وقوف مع فكر النهضة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين، بكل ما لهذا الفكر وما عليه. ويرغب كاتب هذه المقالة بداية أن يشير إلى الملاحظتين التاليتين:

الأولى هي أن كلمة العفلقية الواردة في عنوان هذه المقالة ، إنما نستخدمها هنا على سبيل التغليب وليس الحصر، ذلك أن الأفكار والنظريات التي باتت مرتبطة باسم " القائد المؤسس "، إن هي واقع الحال، إلا آراء كوكبة من المفكرين البعثيين والقوميين العرب الرواد ، والذين من بينهم ، وربما أهمهم ، ميشيل عفلق ـ أما الملاحظة الثانية، فهي إن عدم التطابق بين النظرية والممارسة التي طبعت تاريخ بعض فروع الحزب، ولا سيما في القطرين السوري والعراقي، بعد وصول الحزب إلى السلطة فيهما، لا يعيب ـ برأينا ـ الأسس النظرية للعفلقية ، ولا يقلل من أهميتها التاريخية والمعرفية والأيديولوجية، بل إن مثل هذه المفارقة ، غالبا ما تصاب بها النظريات الكبرى ذات البعد الإنساني، نظرا للمسافة الكبيرة التي يمكن أن تنطوي عليها مثل هذه النظريات بين المرغوب والممكن ، وهو ماحصل مع الخلافة الإسلامية في دمشق وبغداد واستنبول ، في فترات تاريخية معينة ، ومع النظرية الماركسية في موسكو في أواخر القرن الماضي .

ولد ميشيل عفلق عام 1910 في حي شعبي في دمشق، ابناً لتاجر معروف، ليس هو بالغني ولا بالفقير، وكان أي الوالد من المساهمين النشطين في الحركة الوطنية خلال فترة النضال ضد الاستعمار الفرنسي في سورية. سافر ميشيل عفلق عام 1928 مع صديقه صلاح الدين البيطار إلى فرنسا للدراسة، وذلك كنتيجة لفوزهما في مسابقة حكومية. وبعد قضاء خمس سنوات في فرنسا عادا ليعملا كمدرسين في دمشق حتى عام 1942 حيث استقالا من عملهما، وانصرفا كلية للنضال الفكري والسياسي والقومي. لقد خضع ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، في فرنسا، لجملة من التأثيرات الثقافية التي تركت عندهما انطباعات متباينة، ثم لما عادا إلى

الوطن.خضعا أيضا لتأثيرات محلية، قومية ودينية وسياسية مختلفة، وكانت حصيلة هذه التأثيرات الداخلية والخارجية المتباينة أن وقع الإثنان تحت وطأة " أزمة روحية وفكرية عميقة استمرت عامين " انقطعا خلالها عن كل كتابة (أنظر : ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار، القومية العربية وموقفها من الشيوعية، دمشق 1944، ص 10/9).

إن جوهر الأزمة التي كان يعاني منها ميشيل عفلق ، في تلك الفترة هي الموقف من الشيوعية ومن الحزب الشيوعي السوري والذي كان قائما آنذاك بالفعل . يقول ميشيل عفلق حول هذه النقطة : " كان لا بد لحركتنا منذ التعبير الأول عن فكرتها أن تتخذ موقفا أساسيا ومحددا من الشيوعية كنظرية معدة للتطبيق، وكنظرة إلى الإنسان، ذلك لأن الشيوعية أظهرت نفسها كخلاصة للفلسفات التي عرفها البشر، وكدين جديد لمستقبل الإنسانية، فتحديد موقفنا منها كان مفروضا علينا من هذه الاعتبارات" (أنظر: ميشيل عفلق وجمال أتاسي، موقفنا السياسي من الشيوعية، القاهرة 1957، ص 3). ولقد جاء تحديد موقف حركة البعث من الشيوعية، على النحو التالي كما جاء على لسان الأستاذين ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار في المرجع الذي سبق ذكره (ص 3 ـ 15) ونعتذر للقارئ عن طول هذا الشاهد نظرا لأهميته:

" في عام 1928 كنا طلابا نعجب بالوطنيين، ونعمل في صفهم، لأننا لم نكن نفهم القضية الوطنية يومئذ إلاّ أنها نضال بين الأمة والمستعمر (...) ثم انتقلنا إلى ديار الغرب للدراسة (...) ولم نكن نلق عطفا على قضيتنا إلا من بعض النواب الاشتراكيين والشيوعيين في البرلمان الفرنسي، فكان ذلك السبب الذي حببهم إلينا، دون أن نعرف شيئا عن نظرياتهم الاجتماعية والسياسية (...) والتقينا بالاشتراكية عن طريق الفكر والعلم (...) ثم لما عدنا إلى بلادنا حملنا إليها ـ دون انتباه ـ شيئا من هذا الغرب (...) فلنقل إذن أننا عدنا إلى الوطن نحمل الفكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما: مكافحة الاستعمار الأجنبي، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها. وقد فهمنا عن طريق تلك الفكرة، أن النضال ضد المستعمر لن يكون صادقا شاملا مجديا إلا إذا كان نضالا شعبيا (...) وفهمنا أيضا أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية، وإنه لا بد لنجوع النضال ضد المستعمر من تهيئة انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة (...) كنا بالرغم من نفورنا من الشيوعية... نرى فيها فائدة من جهتين: أولا ، لأنها ضربة تصيب الاستعمار الأجنبي، وثانيا ، لأنها ملقح ومحرك للفكر العربي الجامد الآسن تهزه بتطرفها هزا عنيفا. كان هذا شأننا نحوا من ثلاث سنوات، أي لغاية 1936 ، ثم حدث من الحوادث الخارجية والداخلية ما قادنا إلى إعادة النظر في كثير من أفكارنا (...) ونحن بالرغم من كل التحفظات التي أبديناها على الفكرة الاشتراكية، نقول أن ميلنا إليها كان صادقا وعميقا ، وأنها كانت في وقت من الأوقات مناسبة ومجالا لإظهار ما فينا من نزعات للخير وتفكير في الحق (...) ولكن التبدل الأساسي هو في أننا بنتيجة تلك الأزمة صرنا نعرف بوضوح أن ما نشدناه في البلاد الأجنبية إنما هو موجود في أرضنا وفكرنا وتاريخنا ، وأن ذلك القلق الممض الذي كان يساورنا ليس إلا دليلا على أن النفس العربية لا يمكن أن تستشعر الاطمئنان والحرية، وأن تبدع وتخصب إلا إذا استرجعت رسالتها ، وتنفست في جوّ هذه الرسالة وهوائها (...) ونحن حريصون هنا أن نذكر ومنذ الآن ما كان للفلسفة الألمانية من فضل علينا في توجيه فكرنا لما هو أعمق من الظواهر المادية والعلاقات الاقتصادية في تفسير التاريخ ونمو المجتمع، وأنها كانت معدلة لأثر الفلسفة المادية فينا ".

من استعراض الأفكار الأساسية الواردة في هذا النص المطول، نقع على السمة الجوهرية التي ميزت وتميز العفلقية باعتبارها الأيديولوجية التي طبعت فكر ومسيرة حزب البعث على مدى النصف الثاني من القرن المنصرم بكل مافيها من إيجابيات وسلبيات، والتي هي سمة : الانتقائية والازدواجية التي تمثلت بمحاولة الجمع الميكانيكي بين المادية والمثالية في مركب ثالث لا هو بالمادي ولا بالمثالي، مركب يقبل

النقيضين ثم ينفيهما في آن واحد ، بدلا من أن يصهرهما في فلسفة بديلة تستند إلى كل ما هو إيجابي فيهما. إن عرض ميشيل عفلق للفكرة القومية كما يرى ليونارد بايندر في كتابه (أنظر : الثورة العقائدية في الشرق الأوسط، القاهرة 1966 ص 239) " يمثل عند الناقد الغربي خليطا من الفلسفات الغربية الشائعة . ففي هذا العرض عكس مألوف لنظرية هردر في أن لكل أمة رسالة خاصة بها عليها أن تؤديها... (و) هو يضمن عرضه أيضا تأكيد هيغل على التاريخ وعلى الوجود القومي... (و) يعكس، الإرادة العامة، التي نادى بها روسو... وتظهر في كتاباته أيضا نظرية ماركس في الصراع الطبقي... ولكنه يرفض الحتمية، كما يرفض التفسير المادي للتاريخ رفضا كاملا ".

وفي نفس الاتجاه يقول محمد عمارة في كتابه (التيار القومي الإسلامي، القاهرة 1997) عن ميشيل عفلق: " في تكوينه الفكري تجاورت وامتزجت وتفاعلت قراءاته عن رسول الإسلام محمد بن عبد الله (ص) مع آثار أبي العلاء المعري.. والمتنبي.. واسماعيل مظهر.. وشبلي شميل.. وجرجي زيدان.. ونيتشه.. ودستوفسكي.. وكارل ماركس.. وغيرهم من الأدباء والفلاسفة والمفكرين ودعاة الإصلاح والثوار.. مع ميل واضح للآثار الأدبية والفلسفية ". (ص9) .

هذا ويتجلى تأثير كل من العوامل الداخلية والعوامل الخارجية في فكر ميشيل عفلق بتوكيده المستمر والمتزامن، سواء على المستوى النظري، أ و على مستوى العملي ، على التلازم والتداخل بين العروبة والإسلام من جهة وبين العلمانية والقومية العربية من جهة أخرى. يقول الأستاذ ميشيل عفلق عام 1982: " بالنسبة إلى بذور فكرة البعث، التي كانت أرض سورية العربية موطنها الأول.. كانت بداية لقائين حاسمين في أثرهما العميق: لقاء مع الفكر العلمي العقلاني التحرري الحديث، ولقاء مع الإسلام العربي ورسوله الكريم، لقاء الحب والإعجاب والانتماء الحميم " . (محمد عماره ، نفس المرجع ، ص25).

إن هذه الصورة على وضوحها، يمكن أن تصبح أكثر وضوحا وتكاملا بالعودة إلى عدد من المقالات النظرية الهامة في المرحلة التأسيسية ، التي تجسد ماأطلقنا عليه إسم " العفلقية " والتي يجدها القارئ في كتاب (في سبيل البعث) ، وفي بعض أعداد سلسلة (نضال البعث)، ونخص بالذكر منها مقالات : عهد البطولة (1935)، ثروةالحياة (1936)، القومية حب قبل كل شيء (1940)، ذكرى الرسول العربي (1943)، المثالية الموهومة (1943)، المثالية والواقعية (1943) موقفنا من النظرية الشيوعية (1944)، معالم الاشتراكية (1946) . هذا ويعتبر دستور حزب البعث العربي الذي أقره المؤتمر التأسيسي في السابع من شهر نيسان1947 التجسيد الرسمي الأول للفكر النظري لهذا الحزب ، والذي يجمع بين صفتي الدليل النظري والبرنامج السياسي ، في آن واحد ، وهو يتكون من : ثلاثة مبادئ أساسية هي ، وحدة الأمة العربية ، شخصية الأمة العربية ورسالة الأمة العربية ، وثلاثة عشر مبدءاً عاماً (المواد 1 ـ 13) ، و خمس وثلاثون مادة تتعلق بالسياسات الداخلية والخارجية والاقتصادية والاجتماعية . وتلخص المواد من 3 إلى 6 ـ من وجهة نظرنا ـ المرتكزات الفكرية والسياسية لأيديولوجية الحزب، وبالتالي لما أطلقنا عليه العفلقية في عنوان هذه المقالة ،وهي تنص على ما يلي : المادة 3: حزب البعث العربي حزب قومي، يؤمن بأن القومية حقيقة خالدة . المادة 4: حزب البعث العربي حزب اشتراكي، يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة منبثقة من صميم القومية العربية، لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكاناته وتفتح عبقريته على أكمل وجه . المادة 5: حزب البعث العربي شعبي يؤمن بأن السيادة ملك للشعب . المادة 6: حزب البعث العربي انقلابي يؤمن بأن أهدافه في بعث القومية العربية وبناء الاشتراكية، لا يمكن أن يتم إلا عن طريق الانقلاب والنضال، وأن التطور البطيء والاكتفاء بالإصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الأهداف بالفشل والضياع، لذلك فهو يقرر: 1) النضال ضد الاستعمار الأجنبي لتحرير الوطن العربي تحريرا مطلقا كاملا. 2) النضال لجمع شمل العرب كلهم في دولة مستقلة واحدة .

3)الانقلاب على الواقع الفاسد انقلابا يشمل جميع مناهج الحياة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

إن تقديرنا الكبير لفكر القائد المؤسس لا يمنع بطبيعة الحال من وضع هذا الفكر على محك النقد البناء، نظرا للدور الكبير الذي لعبه حزب البعث في التاريخ العربي المعاصر ولاسيما في كل من سورية والعراق ، ويمكن تلخيص هذا النقد بما يلي : لقد أراد ميشيل عفلق، على مدى مسيرته النظرية والعملية أن يشيد بناء ماديا على أساس مثالي جوهره أن " الروح هي الأصل في كل شيء، (وأن) الدافع الروحي العميق لا يسيطر على المادة والوسائل فحسب، وإنما يخلقها أيضا " (في سبيل البعث، مرجع سابق، ص163) . وجاء البناء الأيدو ـ سياسي للحزب يحمل هذه الإشكالية، التي حاول عفلق التغلب عليها بأساليب مختلفة ومتعددة ، من مثل : " فثمة فرق أساسي بين المبدأ كروح والمبدأ كذهن ، فمبادئ الحزب كتعبيرات ذهنية هي بحاجة إلى عمل طويل وإلى دراسة وبحث ترتقي شيئا فشيئاً، وتفيد من دراسات الأمم الأخرى، ومن نتائج البحث العلمي، والتجربة الذاتية، وتجربة الآخرين " (نفس المرجع ص66)، ومن مثل: " المثالي ليس نقيض الواقعي.. لأن الواقعي ليس الذي يستسلم للواقع بل الذي يفهمه " (نفس المرجع ص 69)، ومن مثل " إن مثاليتنا ليست خيالية تتجاهل الواقع، بل إنها المثالية العملية التي تدخل الواقع لتفسيره وتغييره " (نفس المرجع ص 68) . ولا يمكننا هنا أن نستبعد أثر الفيلسوف الألماني هيغل (W. F. Hegel) ، في مقولته الشهيرة " كل ماهوواقعي معقول ، وكل ماهو معقول واقعي " ، ولا أثر كارل ماركس (k. Marx) في أطروحته الحادية عشرة حول فويرباخ ، التي يقول فيها ، منتقدا الفلاسفة الألمان ومنهم هيغل ، " لقد دأب الفلاسفة حتى الآن على تفسير العالم بأشكال مختلفة ، في حين أن المهم هو تغييره " .

لا شك أن هذه الانتقائية التي طبعت فكر المرحوم ميشيل عفلق، قد أكسبت أيديولوجية البعث المرونة والقابلية على التفاعل مع الأيديولوجيات الأخرى، ولكنها أبقتها ، بنفس الوقت ، في فلك الاتجاه المثالي الفلسفي، الذي يرى أن وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي ، ويقلل بالتالي من الأثرالعكسي للعلاقة الجدلية بين الوعيين الفردي والاجتماعي (أي أثر الوعي الجمعي على الوعي الفردي) . يقول ميشيل عفلق فيما يؤكد زعمنا السابق: " الإيمان يجب أن يسبق كل معرفة، وهو يهزأ بأي تعريف، بل إنه هو الذي يبعث على المعرفة وينير طريقها" (في سبيل البعث ص 70) ولا يترك عفلق أية شكوك حول معرفته في أن هذه النظرة هي " نظرة غيبية بلا شك، ولكن الحياة برمتها تقوم عليها " على حد قوله .

إن ما نرغب الإشارة إليه هنا بعد ذكر الملامح الأساسية لفكر المؤسس الرئيسي لـ (حزب البعث العربي) والذي أضيفت إلى اسمه صفة (الاشتراكي) بعد اندماجه مع الحزب العربي الاشتراكي (أكرم الحوراني) إبان فترة نضال الحزبين المشترك ضد ديكتاتورية أديب الشيشكلي في مطلع الخمسينات من القرن المنصرم ، تلك الملامح الفكرية التي أجملناها تحت اسم العفلقية ، هو أن هذه الأفكار والمبادىء التي ناهز عمرها نصف القرن، ما تزال أفكارا تنبض بالحياة ، ويمكنها بالتالي ، أن تزود حركات التحرر الوطني العربية ، التي تعتبر ثورات الربيع العربي الحالية تجسيدا لها ، بالدماء ، بل إن الشعارات الثلاثة التي تمثل خلاصة فكر عفلق (الوحدة ، الحرية ، الاشتراكية) باتت شعارات العديد من حركات التحرر في مختلف أقطار الوطن العربي ، وبغض النظر عن الممارسات الخاطئة التي مارستها وتمارسها قوى وعناصر سياسية وأيديولوجية حملت وتحمل اسم البعث ، ذلك أن مثل هذه الممارسات إن هي إلاّ انحراف بّين عن الفكر الحقيقي للبعث ،وبالتالي عن فكر قائده المؤسس ميشيل عفلق ، ولاسيما فيما يتعلق بالممارسة الديمقراطية وحقوق الإنسان ، وبغض النظر عن إشكالية الإنتقائية والازدواجية التي سبق أن أشرنا إليها ، والتي يمكن أن تحسب في العديد من الحالات ، على إيجابيات العفلقية وليس على سلبياتها فقط ،

إن قرار ميشيل عفلق ، بإضافة إسم (أحمد) الإسلامي ، إلى إسمه (ميشيل) المسيحي ، وعدم رغبته بالإفصاح عن ذلك إلاّ بعد وفاته ، إن هي إلاّ دلالة على الجانب الإيجابي الذي لعبته خاصية المرونة التي ترتبت على تلك الإزدواجية (العروبة ـ الإسلام ، القومية ـ العلمانية) التي طبعت فكر المرحوم احمد ميشيل عفلق ، وبالتالي طبعت وتطبع فكر البعث الحقيقي ، والبعثيين الحقيقيين . والله أعلم



في ذكرى رحيل ميشيل عفلق

معن بشور

بيروت 2009

قد يستغرب كثيرون حين يعلمون أن هذا النص الذي أعددته لهذه المناسبة، هو أول نص أكتبه عن أستاذنا الكبير ومؤسس المدرسة الفكرية التي تعلمت منها الكثير، "الأستاذ" ميشال عفلق، رغم أن الرجل الكبير لم يغب بفكره وتجربته وسيرته وخصائله يوماً عن ذهني...

وكنت دائماً أتساءل لماذا أحجم عن الكتابة عن هذا المفكر الذي أذكره دون توقف في جلساتي ومقالاتي منذ أن تعرفت إليه في أوائل الستينيات، وأهداني رغم صغر سني آنذاك كتابه الثاني "معركة المصير الواحد" ليملأ ثقة في داخلي ما زلت أدين بالفضل فيها، بعد الله، إلى الرجل الكبير ثم إلى محبة إخواني ورفاقي.. ولقد أدركت من خلال هذا الإهداء مقدار التواضع الذي يتحلى به "الأستاذ" ومقدار اهتمامه بالتواصل مع الأجيال الجديدة في الأمة.

وأعتقد أن إحجامي عن الكتابة عن مؤسس البعث منذ رحيله قبل عشرين عاماً ناجم عن الإحساس بأن ما من نص، مهما برعت في إنشائه ،قادر أن يفي الرجل حقه او يستوعب فكره وسيرته، أو حتى أن يستوعب عمق العلاقة الفكرية والوجدانية التي ربطتني به، بل كنت دائماً أخشى أن تتغلب عاطفتي نحو الرجل على

الموضوعية في تقييم تجربته، أو أن يتغلب حرصي على تجنب اتهامي بالعاطفية على كتابتي عنه فاسلب الرجل الكبير الكثير مما يستحق...

لكنني اليوم، وإزاء طلب كريم من رفاق كرام، وجدت نفسي مندفعاً إلى مغامرة الحديث عن رجل بحجم ميشال عفلق أملاً أن تسامحوا في حديثي أي تقصير أو مجاملة قد يبرزان هنا أو هناك...

قبل حوالي الست سنوات تنادينا إلى لقاء في هذا المكان بالذات(فندق الكومودور في بيروت)لاستنكار ما تعرض له ضريح "الأستاذ" في بغداد من جرف على يد قوات الاحتلال الأمريكي وأدواته، وكان موقفنا جميعاً يومها إن هذا الإجراء اللا إنساني واللاحضاري واللا أخلاقي من طرف المحتل لم يكن تعبيراً عن حجم الحقد على فكر الرجل وعلى سعيه الحثيث لنهوض أمته فحسب، بل كان كذلك شهادة بسلامة النهج الذي أطلقه، والفكر الذي حمله، والرؤية التي جسدها، رغم كل ما انتاب مسيرته من عثرات أو كبوات أو انتكاسات.

واذكر يومها إننا اجمعنا على أنه لا جرف الضريح، ولا اجتثاث البعث، قادران على إخماد جذوة الحياة في حركة لعبت في حياة العرب المعاصرة دوراً، بايجابياته وسلبياته، لم تستطع حركة أخرى أن تلعبه وعلى هذا المدى الزمني الطويل، فهي ما زالت تقاوم في قطر، وتمانع في قطر آخر، تبشر في إقليم، وتناضل في إقليم ثان... بل قلنا يومها أيضاً إنها ستكون ولادة جديدة للبعث من رحم المقاومة التي تتجدد في وهجها أمم وشعوب، فكيف بحركات وأحزاب، ولادة نأمل أن تطور ما عرفته مسيرة البعث من ايجابيات، وان تعالج ما رافقها من سلبيات، فالشجاعة الحقيقية تكمن في مواجهة الأعداء ومواجهة الأخطاء في آن معاً، بل أن مواجهة الأخطاء وتصحيحها هي ضمانة الانتصار في مواجهة الأعداء...

والحديث عن الولادة المتجددة، هو حديث ملازم للبعث الذي هو في معناه ولادة متجددة ونهوض متواصل وقيامة مستمرة. بل هو حديث عن واحدة من ابرز سمات "الأستاذ" الشخصية وخصاله، وأعني بها تلك الروح التأسيسية التي لم تفارقه على مدى السنوات والعقود التي عاشها منذ التأسيس الرسمي لحزبه في 7 نيسان 1947 بل قبله في سنوات التمهيد...

فأمام كل نكسة أو تراجع أو هزيمة كانت تواجهها الأمة، أو تلحق بالحزب، كان الرد عند ميشيل عفلق هو في العودة إلى البدايات أي إلى الجماهير، والى أصل الفكرة، وروح الأمة، وذلك لم يكن من قبيل الصدف أبدا أن يختار "الأستاذ" لأول كتاب أصدره بعد نكسة حزيران 1967، عنوان (نقطة البداية) والذي كان في الوقت ذاته عنواناً لمقالته الأولى بعد تلك النكسة القومية الكبرى، فإذ بابن الستين آنذاك يعود إلى البدايات من جديد متقمصاً روح "ايزيس" الذي استمر في محاولاته إيصال الصخرة إلى رأس الجبل غير آبه بالصعوبات التي يلاقيها، ولا باضطراره في كل مرة تتدحرج فيها الصخرة إلى أسفل أن يبدأ من جديد.

ولو حللنا بالعمق هذه الروح التأسيسية المتواصلة لدى مؤسس البعث لاكتشفنا أنها مزيج من إيمان راسخ بالأمة، ومن فكر علمي يغوص في قلب حركة التاريخ ،ويسبر قوانينها، ويسترشد بهديها، ومن ذوبان للذات في مسار الأمة، وللشخص في أعماق المجتمع، فالعمر المهم بالنسبة لأمثال "الأستاذ" ليس عمر الإنسان ذاته، بل هو عمر أمته في حراكها نحو الحرية والوحدة والتقدم.

وإذا كانت هذه الروح التأسيسية الطافحة في شخص "الأستاذ" حتى رحيله، جعلته يبادر وهو في باريس إلى دعوة عدد من كبار مفكري الأمة ومناضليها، من داخل حزبه ومن خارجه؛ إلى جلسات طويلة أراد لها عنواناً هو "العمل المستقبلي العربي"، فان سمات أخرى في فكر عفلق وتجربته قد شدتني أيضاً إليه، سأتوقف عند بعض منها لأن المجال لا يتسع لها كلها.

من تلك الأمور البارزة هي أن "الأستاذ" كان يدرك تماماً أن مشروع النهوض بالأمة، أو قل انبعاثها من جديد، لا ينحصر فقط بالأهداف التي يدعو إليها هذا المشروع أو بعناصره، ولا بالتحليلات والدراسات العميقة التي يستند إليها، بل هو أيضاً يرتبط بالطريق الموصلة إليه وبالأدوات التي تحمل لواءه، إذ ما قيمة أي مشروع نهضوي، مهما اجتهد في صياغته مثقفون وأكاديميون، إذا لم يكن مقروناً بسبل تحقيقه وبوسائل النضال من أجل تجسيده...

لذلك سعى "الأستاذ" عفلق ورفاقه المؤسسون إلى العمل على مستويات اربع مترابطة في آن معاً،،، أولها، تحديد أهداف المشروع وثانيها ،تعبئة فكرية وروحية جذرية تضمن بناء جيل عربي جديد، مؤمن وواع ومسلح فكرياً وخلقياً، وثالثها ،إطلاق حركة نضالية شاملة على مستوى الأمة قادرة على أن تتكافأ في قوتها مع قوة أعداء الأمة الذين يخططون على مستوى المنطقة كلها للهيمنة على مقدراتها، ورابعها، ترابط أهداف المشروع وعناصره، أي ترابط الوحدة العربية والحرية والاشتراكية، ترابطاً وثيقاً جدلياً لا يمكن معه مقايضة هدف آخر، بل أن يصبح لكل هدف نظريته الخاصة المتكاملة مع النظريات الأخرى، ونضاله الخاص الذي يصب مع النضالات الأخرى في حركة استنهاض الأمة.

وبهذا المعنى لم يكن البعث مجرد حركة سياسية كالكثير من الحركات العاملة في الشأن العام يوم تأسيسه، كما لم يكن أيضاً مجرد حركة فكرية نخبوية معزولة عن الناس، بل سعى لأن يجمع الأمرين معاً بجدلية خلاقة، وبأفق رحب، فالفكر عنده يحصّن السياسة ويرتقي بها إلى مصاف الرسالة، والسياسة معه تمتحن الفكر وتحدد له أبرز التحديات المدعو لمواجهتها.

هنا لا بد من الاستدراك بالقول: هل نجح البعث فعلاً في إقامة التكامل المطلوب بين المهمات الفكرية والانشغالات السياسية، ألم تطغ مقتضيات السياسة، وأحيانا السلطة، على الاهتمام الفكري، ثم ألم تهرب بالمقابل نخب بعثية مخلصة من زلازل السياسة إلى ملاذ الفكر.. أسئلة كان "الأستاذ" دائماً يطرحها على نفسه، وعلى رفاقه، بل على الأمة كلها، فبقدر ما كان مسكوناً بالهم التأسيسي كان داعية للمراجعة الدائمة لأنه كان يخشى أن تتحول الأفكار إلى أصنام، والأحزاب إلى أصنام، والقادة إلى أصنام، فتتعطل الأفكار، وتتجمد الأحزاب، وينحرف القادة ويغرقون.

وما دفعني أيضا إلى الاهتمام بفكر ميشيل عفلق هو تلك المعادلة الدقيقة والمبكرة التي رسمها للعلاقة بين العروبة والإسلام حيث حدد بوضوح إن "العروبة جسد روحه الإسلام" مصححاً بذلك خللاً كبيراً اعتور تلك العلاقة في إطار تداعيات انهيار الدولة العثمانية.

لقد أراد أعداء العروبة والإسلام من القوى الاستعمارية المتربصة شراً بهذه المنطقة، والطامحة إلى الاستيلاء عليها وعلى ثرواتها، أن يستخدموا الشعور القومي لدى أبناء الأمة العربية كأداة لضرب الدولة الإسلامية الكبرى مستغلين أخطاء وخطايا وقع فيها القيمون على تلك الدولة، لاسيما خطيئة التتريك، وأن يستخدموا بالمقابل المشاعر الإسلامية، لضرب الهوية العربية كرد فعل على وقوع بعض دعاة العروبة في فخ التحالف مع الغرب ضد الدولة الإسلامية.

فكر ميشيل عفلق أعاد الاعتبار إلى المعادلة التكاملية الصحيحة بين العروبة والإسلام، موضحاً إن الأولى هوية قومية للعرب، مسلمين وغير مسلمين، والثاني عقيدة دينية يعتنقها مسلمون في كل إنحاء العالم بينهم عرب وغير عرب، ملاحظاً إن العرب ينفردون دون سائر الأمم يكون "يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية"... ومشدداً على "أن الإسلام هو الضمانة أن لا يشتط العرب في قوميتهم... فبالإسلام لا خوف أن تبلغ العروبة

عصبية البغي والاستعمار"... ومع الإسلام لا يمكن للعروبيين بالتالي أن يسقطوا في مهاوي المصطلحات أو الممارسات العنصرية أو الشوفينية أو العرقية أو الطائفية أو المذهبية.

في محاضرته "بذكرى الرسول العربي" على مدرج جامعة دمشق في 5 نيسان 1943، والتي، هي بنظري ،بمثابة البيان التأسيسي الفكري الأول لحركة البعث قبل أربعة أعوام من التأسيس الرسمي عام 1947، لم يقفز عفلق فوق دور المسيحيين العرب بل أكد أنه "عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل سيعرفون أن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم"، داعياً الجيل الجديد من المسيحيين العرب إلى "مهمة تحقيق هذه الأمنية بجرأة وتجرد، مضحين في سبيل ذلك بالكبرياء والمنافع، إذ لا شيء يعادل العروبة وشرف الانتساب إليها".

ويبقى السؤال الذي كان يقلق "الأستاذ" دوماً هو هل حافظ البعثيون على هذه المعادلة الذهبية في إدراك عمق العلاقة بين العروبة والإسلام، أم أن العديد منهم، وتحت وطأة الغلو والالتحاق بتيارات "يسارية" و"علمانية" جذابة طاغية في حينها، قد تنكّروا لواحدة من أهم المساهمات الفكرية للبعث، والحركة القومية العربية المعاصرة، والسؤال الآخر الذي يقلقنا أيضاً هل ينجح البعثيون اليوم، ومعهم كل القوميين العرب، في الحفاظ على تلك المعادلة الدقيقة في ظل الظروف الحالية بكل تداعياتها بعيداً كذلك عن أي غلّو أو مغالاة أو مماشاة لما هو رائج.

أما الأمر الثالث الذي شدني إلى فكر ميشيل عفلق والى رؤيته فهو في نظرته إلى العلاقة بين "لبنان والعروبة" رافضاً يأس بعض "الثوريين العرب" من لبنان ومن "إمكانية انفتاحه على العروبة" لأنه حسب "الأستاذ" "لا يجوز للعروبة الثورية أن تيأس من جزء من أجزاء وطنها وشعبها، لأن الثورة العربية ليست إلا الانكباب على مواطن الألم وأسباب التأخير والفرقة في مجتمعنا، ومعالجتها من الأعماق والجذور بروح مشبعة بالإيمان والتفاؤل".

وفي هذا الإطار رفض عفلق منذ عام 1960 في مقالة له بعنوان "لبنان والعروبة" "تقسيم الشعب في لبنان إلى قسمين، قسم مع العروبة وقسم ضدها" معتبراً أن "مشكلة لبنان لم تطرح حتى الساعة بشكل صحيح ونزيه، وأول ما يتوجب تصحيحه هو الاعتقاد "بأن لبنان يكون مشكلة فريدة في الوطن العربي في حين أن فيه مشكلة ولكنها ليس أكثر المشاكل العربية صعوبة".

ودعا "الأستاذ" في ضوء هذه الحقيقة إلى "وضع حد للاعتقاد الخاطئ الذي يعتبر كل نقص أو خطأ في تصرفات بعض الدول العربية نقصاً في القومية العربية" ليصل إلى استنتاج بالغ الأهمية "مشكلة لبنان مع العروبة ليست إلا مشكلة تقدمية العروبة" ويمكن أن نضيف اليوم، وديمقراطيتها أيضا ،وحرص دعاتها أن يروا فيه تكامل وطنيات لا إلغاء للوطنية، وان يعتبروا إن العروبة هي فيض في الوطنية وليست نقصاً في الانتماء الوطني، كما حاول كثيرون القول...

ومن هنا ذهب عفلق إلى أبعد من ذلك حين رأى "للبنان دوراً أساسياً في تصحيح وتعميق وتكامل الحركة العربية الثورية، حتى ولو كان الذين يخاصمون العروبة فيه لا يقصدون التصحيح، إذ المفروض في العروبة الحديثة أن تكون قادرة على قبول هذا التحدي والإجابة عليه بمزيد من توضيح تقدميتها وتعميق إيمانها بالحرية والإنسانية".

وإذا كان عفلق في المعادلة ذاتها، وفي مقالات أخرى، أشار إلى مشكلات أخرى يواجهها الوطن العربي من مغربه إلى المشرق، فانه في التعامل مع هذه المشكلات العرقية أو العنصرية أو القومية قرر رفض اعتماد "الحلول النابعة من اليأس التي تتراوح بين بتر الأجزاء المسببة للمشاكل أو الاحتفاظ بها بالقوة والقهر".

وبالتأكيد، هناك جوانب كثيرة في فكر الراحل الكبير وسلوك تستحق وقفة تقدير منها انه كان قدوة في الزهد والحياة البسيطة الخالية من كل أشكال الاستعراض، وكما كان رغم هدوئه المميز، صلباً في مواقفه، ثابتاً على مبادئه، حريصاً على تغليب الرؤية القومية والإنسانية الأوسع على الرؤية الحزبية الضيقة، مدركاً إشكالية العلاقة بين التطلعات القومية الواسعة للبعث وبين الإمكانات المحدودة للسلطة في القطر، مشدداً على مركزية القضية الفلسطينية رافضاً الرهان على الأنظمة في تحريرها(فلسطين لا تحررها الحكومات بل العمل الشعبي...عام 1947)، داعياً إلى احتضان ثورتها وشعبها حتى ولو بدرت منها أخطاء، مولياً جزءاً مهماً من جهده وفكره لكل قطر وإقليم عربي.

لقد توجه عفلق في وقت مبكر إلى أقطار المغرب العربي منبهاً لأهمية دورها مطلقاً عبارته الشهيرة عن الثورة الجزائرية بعد انطلاقها بأنها "مفاجأة العروبة لنفسها"، واقام اوثق الصلات مع قادة المقاومة والحركة والوطنية في المغرب وتونس واجتذب للبعث ثلة من خيرة شباب ليبيا وموريتانيا ،كما أبدى اهتماماً باليمن الذي رأى في ثورته عام 1962 "ثأراً "من جريمة الانفصال قبل عام، وهي الجريمة التي رفض عفلق التهاون معها ومع مرتكبيها منذ اللحظة الأولىورفض التوقيع على وثيقة الانفصال الذي راى فيه " تحقيقا للتجزئة اي جعله حقيقة وحقا".

أما الجزيرة العربيةوالخليج فلقد أولاهما عفلق أيضا اهتماماً خاصاً خصوصاً أن البعث استقطب نخباً متميزة من الجزيرة والبحرين وقطر والكويت وعمان لعبت أدوارا مهمة في بلادها وعلى مستوى الأمة.

ولقد لفتني في "الأستاذ" عنايته بالنص عناية استثنائية، فالمضمون الراقي عنده يحتاج إلى أسلوب راق، ونهضة الأمة كعمل إبداعي شامل تستدعي إبداعا في الكلمة والعمل، في الفكر والممارسة، في الرؤية والحركة على حد سواء، فجمعت مقالاته بين قوة النص الأدبي وعمق النص الفكري.

مما تميز به عفلق أيضاً هو إدراكه العميق لدور مصر وأهميتها في حياة العرب، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، لذلك استبشر بجمال عبد الناصر بعد سنوات على ثورته، وبقي مقدراً لأهميته ودوره واستثنائيته طيلة حياته، رغم كل ما طفا على السطح من خلافات وإشكاليات مؤذية في العلاقة بين ناصر والبعث، ولا أنسى كيف رفض عفلق على مدى يومين بعد رحيل عبد الناصر أن يستقبل أحداً أو يحادث أحداً فلقد خلّف ناصر برحيله حسب عفلق "فراغاً كبيراً" في الأمة يصعب ملؤه.. ولقد أثار ذلك الوصف لغطاً كبيراً في أوساط بعض البعثيين آنذاك، لأنهم اعتبروه استهتاراً بدور حزبهم فيما اعتبره عفلق إقراراً بالحقيقة، وتجاوزاً لخلافات وحساسيات، وإنصافاً لدور القائد الكبير والقطر الكبير الذي كان عفلق يرى في غياب حركة كالبعث عن الحضور في مصر نقصاً كبيراً كان يسعى إلى تجاوزه دائماً، خصوصاً أن البعث، نجح قبل حل نفسه مع قيام الوحدة عام 1958، في استقطاب مجموعة من خيرة مثقفي مصر ومبدعيها.

أما العراق فقد احتل دوماً موقعاً مميزاً في عقل "الأستاذ" ووجدانه، منذ أن بدأت الإرهاصات الأولى لولادة البعث من خلال لجان نصرة العراق في سوريا عام 1941، إلى أن بات فرع البعث في العراق احد أهم فروع الحزب الذي انطلق من دمشق ليعم أقطار الأمة كلها، كما بات مناضلو البعث في العراق مدرسة في الصلابة والتضحية

والبذل تألقت في الخمسينات والستينات لتستعيد وهجها بعد الاحتلال من خلال مقاومة أذهلت العالم كله وساهمت في إعادة صياغته.

إن نظرة عفلق للعراق كانت تنطلق من أهمية هذا القطر العربي القوي والغني والعريق، وهي الأهمية ذاتها التي جعلت العراق هدفاً لأعداء الأمة يسعون لتدميره وتمزيقه وإبادة شعبه ونهب موارده، ولم يخيب بعثيو العراق وقادتهم أمل أستاذهم ومؤسس حزبهم بهم فقدموا، رئيساً وقيادة ومناضلين شهداء واسرى على يد المحتل، أمثولة في الصلابة والشجاعة والإيمان في مواجهتهم المحتل وسجونه وإرهابه ومنصات إعدامه.

لقد حان الوقت لإنصاف هذا المفكر العربي الكبير ،الذي اجتمعت على ظلمه ،وتشويه صورته ،وتزوير مواقفه ،قوى متعددة ، بعضها من داخل حزبه وبعضها من خارجه، بعضها من داخل تياره وبعضها من خارجه، بعضها من داخل أمته وبعضها من خارجها وفي جميع الحالات، كان الظلم يتضاعف حين يستسهل البعض التهجم عليه بإيحاءات تفوح منها رائحة تعصب فئوي ذميم.

إن إنصاف ميشيل عفلق لا يعني إغفال الجوانب السلبية في التجربة التي قادها، وهي ليست قليلة، بل في أن ندرك أيضا الجوانب الايجابية في تلك التجربة وهي كثيرة، وفي جميع الأحوال فإن عفلق لم يكن الوحيد بين الكبار في هذه الأمة، وهذا العالم، الذين تعرضوا لظلم غير مبرر.

ولعل نقطة البداية في عملية الإنصاف هذه تكمن في أن نعيد جميعاً، وأقول جميعاً، بعثيين وغير بعثيين، قراءة ميشيل عفلق والتعّمق في مسيرته.

ولعل من أبرز ما يمكن عمله في هذا المجال هو إنشاء مؤسسة ميشيل عفلق للدراسات القومية، كما عقد مؤتمر فكري سنوي في ذكرى رحيله لمناقشة أفكاره وتجربته من ضمن أفكار الحركة القومية العربية وتجاربها...

استقبلت في احد أقطار المغرب العربي منذ أشهر، وفداً من الطلبة الجامعيين الذين فوجئت بمستوى وعيهم وثقافتهم واستعدادهم النضالي، وفوجئت أكثر إنهم بعثيون من مدرسة ميشيل عفلق، رغم أن أغلبهم قد ولد بعد رحيل المفكر الكبير... شعرت حينها بالطمأنينة لأننا في أمة تحيا بصدق قادتها وشهدائها ومناضليها وعلى مدى العقود والقرون، وتأكد لي فعلا أننا ما زلنا أمام نقطة البداية من جديد...